

الدرس الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

قال شيخ الإسلام الإمام الأواب محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين في كتابه «الأصول الثلاثة»:

الرابعة : الصبر على الأذى فيه والدليل قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: لَوْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةُ لَكَفَّتْهُمْ. وقال البخاري رحمه الله: بَابُ الْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، والدليل قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩] فبدأ بالعلم قبل القول والعمل .

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

لما أنهى المصنف رحمه الله تعالى ذكر المسائل الأربعة وهي : العلم ، والعمل ، والدعوة ، والصبر ؛ ذكر الدليل على وجوبها ، لأنه قال في تمهيده للكلام على هذه المسائل الأربعة قرر أنها واجبة على كل مسلم وأنه يجب على كل مسلم أن يتعلم هذه المسائل الأربعة ، فإذا قيل ما الدليل على ذلك ؟ ذكر الدليل رحمه الله تعالى ، وعرفنا أن هذه الطريقة هي طريقة أهل السنة والجماعة ؛ يذكرون القول مضموماً إليه دليلاً من كلام الله أو كلام رسوله عليه الصلاة والسلام .

وعرفنا أن دين الله جل وعلا في باب العقائد والعبادات والأحكام هو مسائل ودلائل ، والمسائل: إما مسائل تتعلق بالجانب العلمي وهو جانب الاعتقاد ، أو مسائل تتعلق بالجانب العملي وهو جانب العبادة والطاعة ، فهذا دين الله ، دين الله عز وجل مسائل ودلائل : أي دلائل ؛ أي دلائل تبني عليها هذه المسائل وتستند إليها هذه المسائل ، ولا دين إلا بهذه الطريقة ، كل مسألة من مسائل الدين يجب أن تكون على هذه الطريقة ؛ يقال : "نعتقد كذا لقوله تعالى كذا أو لقوله صلى الله عليه وسلم كذا" ، "نذكر الله تعالى بكذا لقوله تعالى كذا" ، "نعمل كذا لقوله تعالى كذا أو لقوله صلى الله عليه وسلم كذا" ، "نذكر الله تعالى بكذا لقوله تعالى كذا" ، "نعمل كذا لقوله تعالى كذا أو لقوله صلى الله عليه وسلم كذا" ، وهذا معنى قول المصنف رحمه الله ((بالأدلة)) ؛ أي معرفة الله ومعرفة نبيه صلى الله عليه وسلم ومعرفة دين الإسلام بالأدلة ، فهذا شأن الدين مسائل علمية وعملية ودلائلها من كلام الله ومن كلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكل مسألة يؤتى بها لا دليل عليها من كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام فهي مردودة على صاحبها أي كان ، ولهذا قال مالك رحمه الله : «كلُّ يؤخذ من كلامه ويردُّ إلا صاحب هذا القبر» يعني الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «كلُّ يُستدلُّ لقوله لا به

إلا الله ورسوله» أي يستدل بقولهما لا لقولهما ، لأن كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام هو الدليل ، وكل قائل أيّاً كان يُستدل لقوله ؛ أي يُطلب الدليل لقوله ، فإن كان على قوله دليل من الكتاب والسنة قُبِل ، وإن لم يكن على قوله دليل من الكتاب والسنة رُد . ولهذا مضى أهل السنة والجماعة في هذه الجادة ؛ ذكر المسألة مضموماً إليها دليلاً .

فذكر هنا رحمه الله أن كل مسلم يجب عليه أن يتعلم مسائل أربعة؛ ذكرها ثم قال : ((والدليل قوله تعالى)) ؛ أي دليل هذه المسائل الأربعة وأنها واجبة على كل مسلم ((قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾)) هذا هو الدليل ، الدليل على هذه المسائل الأربع هي سورة العصر كاملة بآياتها الثلاث ، فهذه السورة دليل على وجوب هذه المسائل الأربعة . ودلالة الآية على وجوب هذه المسائل الأربعة ظاهرة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى حكم على كل إنسان بأنه خاسر وأنه في خسر إلا إذا اتصف بهذه الصفات وتحلى بهذه النعوت فإنه بذلك يكون سالماً من الخسران . وهذا فيه دلالة واضحة أن هذه المسائل واجبة على كل مسلم ، ومن لم يكن متصفاً بهذه المسائل الأربعة فإنه خاسر ، حكم الله سبحانه وتعالى عليه بأنه في خسر .

وبدأ الله جل وعلا ذكر هذا الأمر وهذه الحقيقة العظيمة بدأها بالقسم بقوله جل وعلا : ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ؛ يقسم جل وعلا على ذلك بالعصر ، والعصر من جملة مخلوقات الله جل وعلا ، فالله خلق الليل والنهار والسماء والجبال والأنهار والشمس والقمر ، فالعصر من جملة مخلوقات الله جل وعلا .

والله عز وجل له أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ، ولهذا ترى في القرآن كثيراً إقسام الله جل وعلا بمخلوقاته ؛ والليل، والنهار ، والشمس ، والقمر، والضحي ، والنجم ، هذا كله قسم ، يقسم الله جل وعلا بما يشاء من مخلوقاته ، وأما عباد الله فلا يحل لأحد منهم أن يقسم بغير الله ، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((من كان حالفاً فليحلف بالله)) ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((لا تحلفوا بأبائكم ولا أمهاتكم)) ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((من حلف بالأمانة فليس منّا)) ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)) ، ولهذا لا يحل للمسلم أن يحلف بغير الله أيّاً كان لا بالأنبياء ولا بنبينا عليه الصلاة والسلام ولا بالكعبة ولا بالأمانة ولا بأي شيء من المخلوقات ، لا يجوز له أن يقسم إلا بالله . والحلف تعظيم ، وهذا التعظيم لا يحل إلا لله سبحانه وتعالى وحده ، ولهذا قال نبينا صلى الله عليه وسلم : ((من كان حالفاً فليحلف بالله)) ، و((من حلف بغير الله كفر أو أشرك)) لأنه صرف هذا التعظيم الذي هو حق لله لغيره سبحانه وتعالى من المخلوقات .

والرب جل وعلا يحلف بما شاء من مخلوقاته ، وعندما يقسم جل وعلا بشيء من مخلوقاته فهذا فيه تشريفٌ لهذا الذي أقسم به ؛ لأن تخصيصه من بين المخلوقات بإقسام الله تبارك وتعالى به دليلٌ على شرفه .

وهنا في هذه السورة يقسم ربنا جل وعلا بالعصر ، وقد قيل في معنى العصر والمراد به أقوال عديدة ، لكن أقربها وأظهرها : أن المراد به الزمان كله ، الليالي والأيام ، العمر ؛ ليس عمر كل إنسان بخاصته وإنما الحياة كلها التي هي ميدان الأعمال ، فالله سبحانه وتعالى خلق الليل والنهار وأوجد هذا الدهر ميداناً للأعمال ، وخلق في هذا الدهر الناس ، وجعل لكل إنسان مدة معينة من هذا الدهر ، ولهذا قال بعض أهل العلم في موعظة له: «أيها الإنسان إنما أنت وقت - أنت وقت زمان محدد- إذا انتهى وقتك وزمانك انتهت حياتك وانتهى عمرك» ، ولا تستقدم عن وقتك ساعة ولا تستأخر فأنت وقت محدد .

فإذا هنا قَسَمَ الله جل وعلا بالعصر ثم ذكره لخسر الإنسان إن لم يكن متصفاً بهذه الصفات فيه التنبيه إلى أهمية العصر ، وأنه هو ميدان العمل ، وأن فوات أي شيء من العصر الذي تعيشه هو فوات حياتك أنت وخسرانٌ حقيقي لك ، لأن أيامك في العصر تمضي سهلاً وتضيع سدى فتكون خاسراً ، فإقسام الله جل وعلا بالعصر تنبيه إلى الاهتمام بالعصر ، والاهتمام بالوقت ، وعدم إضاعة الوقت ، وأن إضاعة الوقت من أعظم أسباب المقت وأعظم أسباب الخسران والحرمان ؛ ففيه التنبيه إلى مكانة العصر .

والعصر الذي هو تقلب الليل والنهار شأنه عجب ؛ ولهذا بعضهم يقول عن الدهر : أبو العجب أو أبو العجائب ، لأن الليل والنهار لم يزالا جديدين ، لكن كم ذهبت أمم وكم هلك من أشخاص وكم حصل من مصائب وكم حصل من قوارع وزلازل وفتن وو .. إلخ ، والليل والنهار لم يزالا جديدين ، أمم تذهب ، ودول تفنى ، وأشخاص يهلكون ، ومصائب تحل ، ولم يزل الليل والنهار جديدين !! ولهذا من عجب أمر الليل والنهار أنه متحرك لكنه أشبه ما يكون بالساكن ، الليل والنهار لا يزال يتجدد ولم يزل الليل والنهار جديدين لكن أحوال الناس عجب في الليالي والأيام ، ولهذا يقول الله جل وعلا : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَنۢ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦١-٦٢] ، «خِلْفَةٌ» أي يخلف بعضه بعضاً ، يذهب ليل ويأتي نهار ، ويذهب نهار ويأتي ليل ولم يزل الليل والنهار جديدين . وهذا فيه ﴿ جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَنۢ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أن يَذَّكَّرَ أمره وما ينبغي أن يكون عليه مع الليالي والأيام ، وأن يكون مع الليالي والأيام لا يزداد إلا شكراً لله سبحانه وتعالى ، لأن نعم الله عليه مع الليالي والأيام متجددة وآلاؤه سبحانه وتعالى متوالية ، فينبغي عليه أن يزداد مع الليالي والأيام شكراً لله سبحانه وتعالى على مَنِّه وإنعامه . إذن هذا القسم بالعصر من ربنا جل وعلا فيه تنبيهٌ لنا بين يدي موضوع هذه السورة ، تنبيه لنا إلى رعاية العصر والاهتمام بالوقت وعدم إضاعته ، وأن في إضاعة الوقت تحقق الخسران .

قال جل وعلا : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ و«الإنسان» هنا تفيد في دلالتها إفادة دلالة لفظ «كل الناس»، لأن «ال» في الإنسان المراد بها الجنس فتفيد العموم ، فقوله : ﴿ الْإِنْسَانَ ﴾ في دلالتها مثل قوله « كل الناس » ، ولهذا يقولون مما تعرف به «ال» التي تفيد الجنس أنه يصلح أن تزيلها وتضع مكانها «كل»، إذا وضعت مكانها «كل» واستقام المعنى فهذه «ال» تفيد الجنس ، ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ أي كل إنسان في خسر ، كل إنسان خاسر ، جميع الناس خاسرين .

وقال : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ولم يقل : «إن الإنسان لخاسر»؛ لأن هذه الصيغة التي في الآية أبلغ في إثبات هذا الأمر وأمكن في الدلالة عليه ، لأن «في» تفيد الظرفية ، فقوله : ﴿ لَفِي خُسْرٍ ﴾ هذا يفيد أن الخسران محيطٌ بالإنسان من كل جانب ، وأنه منغمسٌ في الخسران تمام الانغماس كما يفيد هذا اللفظ ﴿ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ، ف «في» تفيد الظرفية والمعنى أن كل إنسان منغمس في الخسران إلى أم رأسه والخسران محيط به من كل جانب ، هذا حال كل إنسان وهذا شأن كل إنسان؛ أنه منغمس في الخسران إلى أم رأسه والخسران محيط به من كل جانب ، ولا ينجو من ذلك إلا من ذكر الله سبحانه وتعالى صفاتهم بعد قوله «إلا» في السورة . وهذه الحقيقة إلى تمامها بدءاً من قوله : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ أكدها الله سبحانه وتعالى بثلاث مؤكدات :

- المؤكد الأول : القسم ؛ قال : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ أقسم جل وعلا .
 - والمؤكد الثاني : قوله ﴿ إِنَّ ﴾ ؛ فهي تفيد التوكيد .
 - والمؤكد الثالث : اللام الداخلة على الجار والمجرور ﴿ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ؛ فهي لام التأكيد .
- فذكر جل وعلا هذه الحقيقة مؤكدةً بثلاث تأكيدات ، والحقيقة هي حكمٌ على كل الناس بالخسران ، وأن هذا الخسران لا يسلم منه إنسان أبداً كما يفيد العموم في هذه الآية ؛ إلا من أكرمهم الله سبحانه وتعالى واتصفوا بالصفات الأربع المذكورة في هذه السورة في قوله جل وعلا : ﴿ إِلَّا ﴾ يعني هؤلاء المستثنون ، ومن سوى هؤلاء المستثنين خاسر ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴾ ولكي يسلم الإنسان من الخسران لابد أن يتصف بهذه الصفات الأربع مجتمعة ، لا يكفي أن يتصف ببعضها وأن يهمل باقيها ، بل لابد أن يتصف بهذه الصفات الأربع وأن يكون من أهل هذه الصفات الأربع ، فإذا كان كذلك سلّم من الخسران ،

وإن لم يكن كذلك فهو والله خاسر والله لفي خسر كما أخبر ربنا جل وعزّ بذلك : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بالصَّبْرِ﴾ .

ولهذا فإن هذه السورة فيها موعظة بليغة ومؤثرة للغاية لمن وفقه الله تعالى لعقلها وفهمها ، وهذا هو معنى قول الشافعي رحمه الله الآتي «لكفتهم» ؛ يعني كافية في هذا الباب باب الوعظ المؤثر الجامع لأبواب الخير ، وليس مراده رحمه الله أنها تكفيك فلا تحتاج إلى بقية سور القرآن وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وسائر مسائل العلم بدلائله ، ليس هذا مراده ؛ وإنما مراده أنها كفى بها موعظة جامعة بليغة مؤثرة وجيزة أتت على الخير من أبوابه ، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله : «هذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره» . فهي سورة وجيزة بليغة كما وصفها بذلك عمرو بن العاص لما سأله مسيلمة الكذاب ، وكان بين عمرو ومسيلمة في الجاهلية صحبة أو معرفة؛ فلقي عمرو مسيلمة فقال : ماذا أنزل على صاحبكم الليلة ؟ فقال : «أنزل عليه سورة وجيزة بليغة» ، ويأتي لعله ذكر هذه القصة والحديث عنها لاحقاً .

فالشاهد أن هذه السورة سورة عظيمة ؛ وجيزة الألفاظ ، قليلة الكلمات ، آياتها ثلاث آيات لكنها جمعت الخير بحذافيره ، أي من جميع أطرافه ، ففيها كفاية من هذه الجهة: أنها واعظة للإنسان ، ومؤثرة تأثيراً بليغاً ، وتدفع الإنسان إلى المزيد من الخير وأبوابه المتنوعة ومجالاته العديدة، لأن هذه السورة تسوق الإنسان سَوْقاً إلى الخير ، ولهذا روي عن بعض الصحابة أنهم إذا افترقوا يفترقون على قراءة هذه السورة : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ ، وهي ليست من الأذكار التي هي كفارة للمجلس ولا تستعمل هذا الاستعمال ، بل بعض مشايخنا عد ذلك من البدع كالشيخ محمد العثيمين رحمه الله ، لكنها من باب التذكير ، شأنها كشأن أبواب التذكير الأخرى التي تكون عند الوداع والافتراق ، والوصايا التي تكون في هذا الباب ، والنبي عليه الصلاة والسلام يأتي عنه جُمْل من الوصايا المتنوعة ولا سيما الوصية بتقوى الله عز وجل ، كان كثيراً ما يوصي بهذا «تقوى الله» ، فهي من هذا الباب وصية جامعة بليغة وجيزة أتت على الخير بحذافيره .

قال : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ وعرفنا قوة دلالة هذا اللفظ على شدة الخسران وأنه أبلغ من قوله «لخاسر» ؛ لأن «في» تفيد الظرفية .

قال : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بالصَّبْرِ﴾ ؛ فذكر جل وعلا هذه الصفات الأربع التي من اتصف بها سلم من الخسران ، ومن أخلَّ بها أو بشيء منها فهو خاسر ؛ وهي المسائل التي ذكر المصنف رحمه الله أنها واجبة على كل مسلم ومسلمة : العلم ، والعمل ، والدعوة ، والصبر .

الأولى من هذه الأوصاف المذكورة في هذه السورة وفي هذا السياق: قوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي آمنوا بالله جل وعلا الذي الإيمان به أصل أصول الإيمان وأساس أسس الدين ؛ آمنوا بالله وبكل ما أمرهم الله سبحانه وتعالى بالإيمان به ، آمنوا بذلك إيماناً جازماً لا شك فيه ولا ريب . والإيمان لا يكون إيماناً إلا مع انتفاء الشك ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥] أي أيقنوا ولم يشكوا ، فالمعنى في قوله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي إلا الذين آمنوا إيماناً جازماً و يقيناً راسخاً لا شك فيه ولا ريب بالله سبحانه وتعالى وبكل ما أمرهم جل وعلا بالإيمان به .

وإيمانهم بالله يتناول أركان الإيمان بالله الثلاثة وهي : الإيمان بوحديته في ربوبيته ، ووحديته في أسمائه وصفاته ، ووحديته في ألوهيته . ودين الإسلام سمي «توحيداً» لأن مبناه على الإيمان بوحداية الله في ربوبيته ، وفي أسمائه جل وعلا وصفاته ، وفي ألوهيته ؛ وذلك بإقرار العبد بأنه وحده تبارك وتعالى الخالق الرازق الملك المتصرف المدبر لشؤون الخلائق لا شريك له ، وأنه تبارك وتعالى له الأسماء الحسنى والصفات العلى لا مثل له ، وأنه جل وعلا المعبود بحق ولا معبود بحق سواه ، وأن يصرف له العبادة كلها ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] . وأن يؤمن كذلك بكل ما أمره الله سبحانه وتعالى به ؛ ومن ذلكم أصول الإيمان المجتمعة في حديث جبريل لما سأل النبي عليه الصلاة والسلام عن الإيمان قال : «أخبرني عن الإيمان؟» ، قال : ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره)).

فهذه الأصول العظام من لم يؤمن بها أو شك فيها أو شك في بعضها فإنه خاسر لا محالة ، حتى وإن عمل من الأعمال الصالحات شيئاً كثيراً وأتى من أبواب البر والصلاح أبواباً كثيرة لا تفيد ؛ خاسر لا محالة ، لأن الإيمان بالله وبكل ما أمر سبحانه وتعالى عباده بالإيمان به هذا يعد أساساً للسلامة من الخسران ، وإذا خرب الأساس خرب ما بُني عليه ، وإذا بطل الأساس بطل ما بُني عليه ﴿وَمَنْ يُكَفِّرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥] ، ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤] ، الكفر أساس الخسران في الدنيا والآخرة ، ولأجل هذا بُدئ به ، والبدء به دليل على الاهتمام ، وأن أعظم أبواب النجاة من الخسران الإيمان بالله جل وعلا وبكل ما أمر سبحانه وتعالى عباده بالإيمان به .

ونستفيد من هذا فائدة عظيمة في باب النجاة من الخسران: أن نهتم -معاشر الإخوة- بالتوحيد والإيمان دراسةً وتعلماً وتفقهاً وتبصراً ؛ فإن الإيمان والتوحيد هو الفقه الأكبر الداخل دخولاً أولياً في قول نبينا عليه الصلاة والسلام : ((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)) ، أعظم الفقه في الدين الفقه الأكبر ؛ وهو توحيد الله والإيمان

به والإيمان بكل ما أمر سبحانه وتعالى عباده بالإيمان به ؛ فيعتني المسلم عناية دقيقة بهذا الأمر به ويهتم به اهتماماً بليغاً .

وعليه أن يعلم أن حاجته للإيمان بالله وللإيمان بكل ما أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالإيمان به أشد من حاجته إلى طعامه وأشد من حاجته إلى شرابه وأشد من حاجته إلى الهواء لأن انقطاع الهواء والطعام والشراب يكون به موت البدن ، أما انقطاع الإيمان عن قلب الإنسان ففيه موت القلب ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] إيمانك هو حياتك الحقيقية ، ولهذا الإنسان بدون الإيمان حياته حياة بهيمية ، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى عن الكفار: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاثِبَاتٌ﴾ [الفرقان: ٤٤] الأنعام تستنشق الهواء وتأكل الطعام وتشرب الماء ، فإذا كان الإنسان عديم الإيمان فحياته حياة بهيمية .

فحاجة الإنسان إلى الإيمان هي أعظم الحاجات ، وضرورته إليه أعظم الضروريات ؛ ولهذا يحتاج العبد إلى أن يزداد عناية ورعاية واهتماماً بإيمانه أعظم من اهتمامه بطعامه وشرابه ولباسه وغير ذلك من حاجاته ومصالحه وضروراته ، لأن الحاجة إلى الإيمان هي أشد الحاجات ، والضرورة إليه هي أشد الضرورات ، وهو الأساس الذي تبنى عليه النجاة ، وتكون به السلامة من الخسران ، ويتحقق به للعبد الفلاح في الدنيا والآخرة ، قال : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا الأمر الأول .

وفي قوله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تنبيه إلى العلم الذي هو المسألة الأولى عند المصنف ؛ إذ كيف يُعرف الإيمان وكيف يُعرف العمل إلا بالعلم ، العلم النافع هو البوابة التي من خلالها يصل الإنسان إلى الإيمان الصحيح وإلى العمل القويم وإلى حسن التقرب إلى الله جل وعلا ، ولهذا كان أول الوحي نزولاً على نبينا عليه الصلاة والسلام ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ١] ، أول ما نزل عليه الأمر بالقراءة ﴿اقْرَأْ﴾ ؛ لأن الوحي والإيمان والعلم والدين لا يمكن أن يُعرف إلا بالعلم ، لا بد من العلم من أجل الإيمان ، من أجل العبادة ، من أجل العمل ، من أجل الطاعة ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة)) ، فالجنة لا تنال إلا بالإيمان والعمل الصالح ، والإيمان والعمل الصالح لا يُعرف إلا بالعلم النافع ، ولهذا كان نبينا عليه الصلاة والسلام كل يوم بعد صلاة الصبح كما ثبت في المسند والسنن يقول : ((اللهم إني أسألك علماً نافعاً ، وعملاً متقبلاً ، ورزقاً طيباً)) ؛ يبدأ عليه الصلاة والسلام بسؤال الله العلم النافع ، لأنه بدون العلم النافع لا يمكن أن تميز بين عملٍ صالح وطالح ، ولا بين رزق طيب وخبيث ، ولا بين اعتقاد صحيح وفاسد ، فالعلم هو الذي يميز به المسلم الأمور ، العلم نور وضياء ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] العلم نور وضياء لصاحبه ، والجهل ظلمات . فإذا الآية

فيها دلالة على العلم في قوله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لا سبيل إلى معرفة الإيمان ومعرفة حقائق الدين وشرائع الإسلام إلا بالعلم النافع ، والعلم النافع : هو المستمد من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ؛ هذا الأمر الثاني : ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ، والمراد بالصالحات : أي العبادات المقربة إلى الله سبحانه وتعالى . والعمل الصالح : هو ما شرعه الله وأمر به عباده ، ولهذا ليس هناك عمل صالح يُتقرب به إلى الله جل وعلا إلا ما شرع فهذا هو العمل الصالح ، فمن تقرب إلى الله بعمل يرى هو أنه صالحاً ولم يشرعه الله لا يقبله الله منه ولا يكون معدوداً في الأعمال الصالحة المقربة إلى الله ، لأن العمل الصالح هو المشروع المأذون به في الكتاب والسنة حسب ، وما زاد على ذلك مما أوجده الناس ليس معدوداً في العمل الصالح بل هو معدود في سيئات الأعمال ، وقد قال نبينا عليه الصلاة والسلام في هذا قولاً واضحاً : ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)) أي مردود على صاحبه غير مقبول منه ، ولو واصل في صاحبه الليل والنهار فهو غير مقبول منه بل هو خاسر ولهذا قال الله سبحانه : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ يعني يعملون وهم خاسرون ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤] يعني يعمل ويقدم أعمالاً ويأتي بقربات لكن لا تُقبل منه وتُرد عليه ويكون في جملة الخاسرين لم ؟ لا فتقاد شرط قبول العمل ، والعمل لا يُقبل إلا بشرطين ، ولا يكون معدوداً في الأعمال الصالحة إلا بهما : الإخلاص للمعبود ، والمتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في الدعاء : ((اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)) ؛ العبادة لا تُقبل إلا إذا اتصفت بالحسن ، والحسن لا يكون وصفاً للعبادة إلا بالإخلاص والمتابعة ، ولهذا قال الفضيل بن عياض رحمه الله في قوله تعالى : ﴿لِيُبْلِغُكُمْ أَيْكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قال : «أخلصه وأصوبه»، قيل : يا أبا علي وما أخلصه وما أصوبه ؟ قال : «إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل ؛ حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص : ما كان لله ، والصواب : ما كان على السنة» .

إذا الأمر الثاني من أمور النجاة والسلامة من الخسران : العمل الصالح ؛ أن يعمل الإنسان الأعمال الصالحة المقربة إلى الله سبحانه وتعالى ، مخلصاً لله سبحانه وتعالى بها متبعاً للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ فلا يعبد إلا الله ، ولا يعبد الله إلا بما شرع مما جاء وثبت وصح عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

والأعمال الصالحة منها فرائض ومنها مستحبات ، ولهذا قال ربنا سبحانه وتعالى في الحديث القدسي : ((ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي عليها ، ولئن سألني

لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه)) أي أن الله عز وجل يسدده ويوفقه بسمعه وبصره ويده وقدمه فتكون أحواله وأموره وجوارحه كلها ماضية على السداد بتسديد الله له وتوفيقه سبحانه وتعالى .

وهنا في هذه الآية عطف سبحانه وتعالى العمل على الإيمان مع أنه جزء منه! وذلك فيه اهتمام بالعمل ، وقد يُعطف على الشيء ما هو جزء منه وما هو داخل في مسماه اهتماماً به؛ كقوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ [البقرة: ٢٣٨] ، وقوله : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ ﴾ [البقرة: ٩٨] ؛ جبريل من الملائكة ، لكن مثل هذا العطف يفيد الاهتمام . ففي هذا من الفائدة : أهمية الأعمال ومكانتها من الدين ، وأنها من أسباب النجاة ، وأن إضاعتها من أسباب الخسران والحرمان ، وأن مضيع الأعمال خاسر ، حكم الله سبحانه وتعالى عليه بذلك ؛ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فهذا فيه اهتمام بالأعمال الصالحة والعناية بها والمحافظة عليها والمواظبة عليها .

الأمر الثالث قال : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ ؛ نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن غيره قال : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ أي : التوحيد ، وقيل ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ أي : تواصوا بدين الله عز وجل أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر . والآية عامة تتناول ذلك كله ؛ ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ أي بكل ما أمرهم الله سبحانه وتعالى به وكل ما دعاهم إليه من فعل المأمورات التي أعظمها التوحيد ، وترك المنهيات التي أخطرهما الشرك ؛ فيدخل في قوله ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ التواصي بالتوحيد ، ويدخل في قوله ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ التواصي بالحد من الشرك والبعد عنه والتحذير منه ، يدخل في قوله ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ : التواصي بالبعد عن البدع والمحدثات ، يدخل في التواصي بالحق : التواصي بالبعد عن الكبائر والمعاصي والآثام ، يدخل في التواصي بالحق : التواصي بالفرائض والطاعات والمقربات إلى الله جل وعلا ، يدخل في التواصي بالحق : التواصي بالرغائب والنوافل والعبادات التي تساند الإنسان وتسدد الإنسان وتجبر ما عند الإنسان من نقص في أعماله ، كل ذلكم داخل تحت قوله : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ .

وهذا فيه أهمية الدعوة إلى الله ، وأنها ضرورة وواجب ديني على كل مسلم يريد لنفسه النجاة من الخسران . الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى وظيفة كل مسلم ، ليست وظيفة بعض الناس ، هي وظيفة كل مسلم أن يكون داعياً إلى الله سبحانه وتعالى أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، وكل بحسبه ، وكل على قدر استطاعته ؛ ((من رأى منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)) ، ولهذا المسلم مطلوب أن يكون داعياً إلى الله جل وعلا ، وأن تكون دعوته إلى الله لا إلى نفسه ، وأن تكون دعوته إلى الله بالبصيرة لا بالجهل ؛ وهذا أيضاً فيه الاهتمام بالعلم قبل الدعوة كما قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : «من دعا بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح» .

ولهذا المسلم يحتاج أن يكون دائماً يتعلم ويُعلِّم ، يتفقه ويُفقه ، يعرف الحق ويعمل به ويدعو إليه ، وإذا رأى منكراً نصح على قدر استطاعته ويجتهد ، لكن ليحذر أشد الحذر أن يدعو إلى الله عز وجل بجهل ؛ فهذا من أخطر ما يكون ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص من آثامهم شيئاً)) ، ولهذا دعا الضلالة يتحملون آثامهم وآثام أتباعهم إلى يوم القيامة . فالدعوة إلى الله بغير بصيرة هذه جناية على النفس وجناية على الناس ، قد قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين)) ؛ الأئمة المضلين : هم الدعاة إلى الدين بغير بصيرة وبغير هدى من الله ، إما بالأهواء أو بالآراء أو بغير ذلك ، وهذا من أخطر ما يكون على الناس وأشد ما يكون ضرراً .

ولهذا لاحظ الأمور جاءت في الآية مرتبة ، ويأتي بها العبد في حياته على ترتيبها في الآية ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ﴾ ؛ تواسيهم بالحق بعد إيمانهم وعلمهم وعملهم بالصلوات ، أما الذي يعبد الله بالبدع إذا دعا سيدعو إلى ماذا؟ سيدعو إلى بدعٍ محدثات ، ييؤء بإثم نفسه وإثم من تبعه ، فإذا تكون المسألة بهذا الترتيب وبهذا التدرج الذي في الآية : الإيمان مبني على علم صحيح ، وعمل صالح مبني على اتباع واقتداء بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، يأتي بعد ذلك الدعوة والتواصي بالحق الذي هو عائد إلى الإيمان والعمل الصالح ؛ ﴿بِالحَقِّ﴾ والحق هو دين الله جل وعلا ، قال الله : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٢٢] ، فالله من أسمائه الحق ودينه حق ، والنبي صلى الله عليه وسلم حق ، والساعة حق ، فيدعو إلى هذا العبد ، بعد أن يؤمن ويعمل يدعو إلى الحق ، يدعو إليه على بصيرة .

قال : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ ؛ وهذا فيه مقام الصبر ومكانته من الدين وأن مقام الصبر في الدين مقام عظيم ، إذ أنت تحتاج إلى الصبر في الدين كله ، وتفنقر إلى الصبر في أمورك كلها ، لا تستطيع أن تعبد الله إلا بالصبر ، ولا تستطيع أن تترك ما حرم الله إلا بالصبر ، ولا تستطيع أن تسلم لأقدار الله سبحانه وتعالى المؤلمة إلا بالصبر ، أنت تحتاج إلى الصبر ، لا تستطيع أن تطلب العلم إلا بالصبر ، فالصبر تحتاج إليه في طلبك للعلم ، في عبادتك لله ، في بُعدك عن المحرمات ، في تلقي المصائب المؤلمات ؛ كل ذلك تحتاج فيه إلى الصبر ، ولهذا فإن قوله : ﴿وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ يتناول الصبر على العلم ، الصبر على العمل ، الصبر على الدعوة إلى الله ، والصبر على الأذى الذي يناله من يدعو إلى الله سبحانه وتعالى ، فالصبر في الآية يتناول ذلك كله ﴿وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ .

وهذا فيه تنبيه أن الناجين من عباد الله السالمين من الخسران من صفاتهم التواصي بالصبر ؛ يصبر بعضهم بعضاً ، أحياناً بعض الناس يُقبل على العبادة ثم تبدأ نفسه تتفلت ؛ فيحتاج إلى إخوان خير ورفقاء خير يوصونه بالصبر

والبُعد عن الفتن والشهوات ، أحياناً يكون على الاستقامة ثم تجرّه نفسه إلى شهوة محرمة فيحتاج إلى الوصية بالصبر ؛ ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

والوصية بالصبر لا تحتاج إليها مرة في حياتك بل تحتاج إلى أن تستمر على هذه الوصية ، وخاصة كلما شعر الإنسان بتفوّت في باب فعل الأوامر ، أو في باب ترك النواهي ، أو في باب تلقي المصائب ؛ فيحتاج الإنسان إلى الصبر أن يذكر نفسه هو به وأن يذكر إخوانه بالصبر . فإذا من دأب الناجين المفلحين السالمين من الخسران التواصي بالصبر دوماً وأبداً ، ولهذا في سورة البلد لما ذكر الله سبحانه وتعالى وصف من اقتحم العقبة قال في وصفه : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ [البلد: ١٧-١٨] أي هؤلاء الذين متصفون بهذا الوصف ومن جملة التواصي بالصبر هم أهل الميمنة ، فالوصية بالصبر ينبغي أن تكون وصية دائمة مستمرة بين المسلمين ؛ يوصون بعضاً بالصبر على الصلاة ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] ، فيحتاج العبد إلى أن يتحلى هو في نفسه بالصبر ، وأن يكون أيضاً يوصي إخوانه به ؛ يوصيهم بالصبر على العبادات ، الآن كم يحتاج الناس وطلاب العلم إلى الوصية بالصبر على صلاة الفجر !! أليست صلاة الفجر تضيّع كثيراً الآن؟! كم يحتاج الناس إلى الوصية بالصبر عليها؟! كم تضيّع؟ كم يهملها الناس؟! كم يفرطون في واجبات وفرائض؟! كم تتخطفهم شبهات وأهواء؟! فما أحوج المسلمين للنجاة من الخسران إلى الصبر والتواصي بالصبر حتى تبقى استقامتهم ، تدينهم ، محافظتهم على طاعة الله ، سلامتهم . المسلم يحتاج إلى إخوانه ، يحتاج إلى إخوان الخير ورفقاء الصلاح ويصبر معهم ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ [الكهف: ٢٨] .

فإذاً مقام الصبر مقام عظيم جداً من الدين ، وما وُجد في الناس من ضياع وتفريط وإهمال في باب العلم أو في باب العبادة أو في باب ترك المحرمات إلا من التفريط في مقام الصبر العظيم ، ولهذا نحتاج أن نقرأ ونتواصى بالصبر كثيراً ، ونقرأ سير أئمة الصابرين أنبياء الله ورسوله ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] نحتاج إلى ذلك نقرأ قصصهم ، اقرأ قصة يوسف عليه السلام ما أعجبها وما أروعها !! وما أعظم صبر يوسف عليه السلام بأنواع الصبر الثلاثة : الصبر على الطاعة ، والصبر عن المعصية ، والصبر على أقدار الله المؤلمة ، وكان في ذلك إماماً عليه الصلاة والسلام ؛ ابتلي عدة ابتلاءات : دعت امرأة العزيز إلى نفسها ﴿ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ [يوسف: ٢٣] اجتمعت عليه وأغرته هي والنسوة ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف: ٢٣] صبر في مقام فتنة ، كان غريباً ، وكان شاباً ، وكان جميلاً ، واجتمعت من الدوافع والمغريات الشيء الكثير ، وأمام كل ذلك يقول : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ ، ويقول : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ صبر عن المعصية ،

وصبر على أقدار الله المؤلمة ؛ أي مؤلم أشد من أن يرميه إخوانه في غيابة الجب يريدون قتله وموته؟! ثم يؤخذ ويباع عليه الصلاة والسلام ، تلتقطه السيارة ويباع في مصر ، أمور مرت به مؤلمة جداً وصبر مطيعاً لله عابداً لله راضياً بأقدار الله ، مبتعداً عن ما يسخط الله جل وعلا ، ثم انظر إلى المال الرشيد ؛ في نهاية المطاف ﴿قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتِّقُ وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] فالصبر أمر يحتاج إليه المسلم في حياته كلها ، وخاصة في زمان هذا الذي تلاطمت فيه أمواج الفتن وتكاثرت فيه أبواب الفساد وأخذت تعصف بالناس في كل صوب ، وتجرف العقول ، الأفكار ، الأخلاق ، الأديان ؛ فيحتاج الإنسان إلى الصبر والتواصي به أشد الحاجة ليسلم من الخسران ، ولهذا ذكر الله سبحانه وتعالى صفة الناجين من الخسران أنهم يتواصون بالصبر ؛ بالصبر على العلم ، بالصبر على العمل والعبادة ، بالصبر على الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ، إذا أودى أحد في الدعوة إلى الله "اصبر يا أخي ، احتسب ، الأنبياء قبلك أودوا ، سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام أودى ، اصبر واحتسب ، لك العاقبة الحميدة" ، فبمثل هذا التواصي تمضي الأمور ، استقامة للعباد في أنفسهم ونشراً لدين الله سبحانه وتعالى بين الناس . فما أشد حاجة الإنسان ليسلم من الخسران إلى ذلك . قال : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ .

هذه السورة العظيمة جمع فيها ربنا سبحانه وتعالى أسباب النجاة من الخسران ، ولا ينجو عبد من الخسران إلا إذا جمع لنفسه هذه الأوصاف ، وجاهد نفسه على تحقيقها وتتميمها ؛ ليكون ناجياً من الخسران ، وإلا فإن ربنا عز وجل أقسم أن كل إنسان خاسر ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ .

ثم نقل المصنف رحمه الله تعالى عن الشافعي كلاماً في الثناء وتعظيم هذه السورة . قبل ذلك أشير إلى أمرين :

- الأول : يتعلق بالصبر ؛ الصبر يقول عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «ضابط الأخلاق المأمورة بها» ، وانتبه لهذه الكلمة فإنها عظيمة قال : «ضابط الأخلاق المأمورة بها» وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)) ، ولا يمكن أن تستقيم على خلق إلا بالصبر ، الصبر ضابط الأخلاق المأمورة بها ، بمعنى أن من لم يكن عنده صبر لن يكون يوماً من الأيام إذا حُلِق ، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾ هذا خلق عظيم ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴿[فصلت: ٣٤-٣٥] ، إذا افتقد الإنسان الصبر افتقد الأخلاق ، إذا افتقد الإنسان الصبر افتقد الدين ، إذا افتقد الإنسان الصبر وقع في الحرام ، إذا افتقد الإنسان الصبر تخطّفه اللئام ؛ ولهذا يحتاج الإنسان إلى الصبر في جميع أبواب الدين ، في جميع أموره وشؤونه .

■ الأمر الثاني : ابن القيم رحمه الله أعطى خلاصة تستفاد من هذه لسورة العظيمة قال فيها رحمه الله : «الكمال - أي في الإنسان - أن يكون الشخص كاملاً في نفسه مكماً لغيره ، وكماله - أي في نفسه - بإصلاح قوّتيه العلمية والعملية . وإصلاحك قوتك العلمية هذا في قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ، وإصلاحك لقوتك العملية بقوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ، وتكميلك للآخرين قال : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ .

فجمعت هذه السورة ما يكون به كمال الإنسان وهو أن يكمل في نفسه إيماناً وعملاً ، وأن يسعى في تكميل الآخرين نصحاً للعباد ، ودعوةً إلى الحق ، ورحمة بالخلق ، ونصحاً لدين الله تبارك وتعالى .

بعد ذلك نقل المصنف رحمه الله كلمة عظيمة للإمام الشافعي قال فيها : «لَوْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةُ لَكَفَتْهُمْ» ؛ يظهر أن هذه الكلمة المنقولة عن الشافعي منقولة عنه بالمعنى ؛ فقد يكون الشيخ رحمه الله وقف عليها في بعض المصادر منقولة عنه بالمعنى ، وأما لفظ كلام الشافعي كما في مصادر عديدة نقلته عنه ومنها «مناقب الشافعي» رحمه الله لفظه : «لو فكر الناس في هذه السورة لكفتهم» . ولهذا سمعت مرة شيخنا الشيخ حماد الأنصاري رحمه الله تعالى يقول : «لقد بحثنا وفتشنا كثيراً عن هذه الكلمة بهذا اللفظ فلم نجدها ، وقد وجدتها في مناقب الشافعي للبيهقي وغيره بأسانيد رائعة بلفظ : لو فكر الناس في هذه السورة لكفتهم» . انتهى كلامه رحمه الله .

وهذه كلمة عظيمة جداً من الإمام الشافعي رحمه الله في بيان مكانة هذه السورة وعظيم شأنها ، ولهذا قال أحد أئمة الدعوة وهو الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن رحمه الله تعالى تعليقاً على مقولة الشافعي هذه ، لماذا قال الشافعي «لكفتهم» ؟ قال رحمه الله : «قلتُ لأنها تتضمن الأصول الدينية ، والقواعد الإيمانية ، والشرائع الإسلامية ، والوصايا المرضية» ؛ فهذا كله جمعته هذه السورة الوجيزة البليغة .

هل معنى قوله «لكفتهم» هل معنى ذلك أنها تغني عن دراسة أمور الشريعة وتغني عن الفقه في الدين وتعلم الأحكام ومسائل الدين ؟ هل هذا معنى كلامه ؟ هل هذا هو المراد ؟ الجواب لا ، لكن المراد به كما أوضحت أنها كفى بها واعظاً جامعاً موجزاً بليغاً في الحث على العلم والعمل والدعوة والصبر ، كفى بها دلالة على ذلك . ليس المراد أنها كافية ومغنية للإنسان عن طلب العلم . ولهذا الشيخ عبد اللطيف نقل له كلام شخص يوصي صاحبه ، كتب لصاحبه وصية وكان صاحبه أراد أن يرحل في طلب العلم على العلماء وعلى المشايخ ؛ فكتب له أخ له يوصيه قال لأخيه : «يكفيك لطلب العلم سورة العصر» ؛ يعني ما يحتاج ترحل إلى العلماء ولا يحتاج إلى أن تقرأ الكتب وتطلع على كلام العلماء ؛ يكفيك لطلب العلم سورة العصر ، يعني لا ترحل للطلب ولا تقرأ على العلماء ولا تدرس الكتب يكفيك سورة العصر . وهذا من سوء الفهم لكلام أهل العلم ، سمع بكلام الشافعي وهو قوله «لكفتهم» وفهمه فهماً خاطئاً ، فكتب الشيخ عبد اللطيف رحمه الله كلاماً في رد هذه المقالة وبياناً

لمراد كلام الشافعي رحمه الله ؛ قال : «اعلم أن قول الشافعي رحمه الله فيه دلالة واضحة على وجوب طلب العلم» خلافاً لفهم هذا الشخص قال : يكفيك في طلب العلم أن تقرأ سورة العصر ، قال رحمه الله : «اعلم أن قول الشافعي رحمه الله فيه دلالة ظاهرة على وجوب طلب العلم مع القدرة في أي مكان ، ومن استدل به على ترك الرحلة والاكتفاء بمجرد التفكير في هذه السورة فهو خليّ الذهن من الفهم والعلم والفكرة إن كان في قلبه أدنى حياة ونهمة للخير ، لأن الله افتتحها بالإقسام بالعصر الذي هو زمن تحصيل الأرباح للمؤمنين وزمن الشقاء والخسران للمعرضين الضالين ، وطلب العلم ومعرفته ما قصد به العبد من الخطاب الشرعي أفضل الأرباح وعنوان الفلاح ، والإعراض عن ذلك علامة الإفلاس والإبلاس ، فلا ينبغي للعاقل العارف أن يضيّع أوقات عمره وساعات دهره إلا في طلب العلم النافع والميراث المحمود ، كما قيل في المعنى شعراً :

أليس من الخسران أن الليالي تمر بلا نفع وتحسب من عمري !! »

انتهى كلامه رحمه الله تعالى ، وفيه إيضاح وافي وبيان شافي لمعاد الإمام الشافعي رحمه الله تعالى من مقولته : «لو فكر الناس في هذه السورة لكفتهم » .

ذكرت لكم قصة عمرو بن العاص عندما لقي مسيلمة الكذاب ، ويقال - ذكر بعض أهل العلم - أن لقاء عمرو هذا بمسيلمة قبل أن يسلم عمرو بن العاص ، وبعض أهل العلم رجح أن هذا اللقاء كان بعد إسلام عمرو بن العاص ، والقصة: أن عمرو بن العاص لقي مسيلمة الكذاب - كما ذكر في تفسير ابن كثير وتاريخه وفي كتب التاريخ والأخبار - لقيه فقال مسيلمة لعمرو : ماذا أنزل على صاحبكم الليلة ؟ أو ماذا أنزل عليه في هذا الزمان أو في هذا الوقت ؟ قال : «أنزل عليه سورة وجيزة بليغة» ، قال : وما هي ؟ فتلى عليه سورة العصر ، ووصفها عمرو بأنها وجيزة بليغة ، وجماعة من أهل العلم يقولون أن هذا كان منه قبل أن يسلم ، فيصف هذه السورة بهذه الصفة وكان وقتها من عبّاد الأوثان على قول من أقوال أهل العلم ، ويصفها بهذه الصفة «وجيزة بليغة» ، فلما سمع مسيلمة الكذاب السورة إلى تمامها فكر قليلاً ثم قال : "وأنا أنزل علي مثلها" فقال له : وماذا أنزل عليك ؟ قال : "يا وبر يا وبر إنما أنت بطن وصدر ، وباقيك نقر وحفر" ، إيش رأيك يا عمرو ؟ يقول : ما رأيك يا عمرو ؟ بعدما ذكر هذا الذي أنزل عليه قال : ما رأيك يا عمرو ؟ قال : «والله إنك تعلم إني أعلم أنك كاذب» يعني ما يحتاج أن تسأل ، ولهذا ابن كثير يقول : ففرّق بين وحي الرحمن ووحى الشيطان مع أنه كان وقتها من عبّاد الأوثان ، فرّق بين الوحيين .

أيضاً مما ينقل في هذا الباب أن ابن عباس رضي الله عنهما أتاه أحد التابعين أو أحد الأشخاص وقال له : إن مسيلمة زعم البارحة أنه أوحى إليه -نزل عليه الوحي- قال ابن عباس رأساً : «صدق». فالرجل ارتاب ؛ مسيلمة

أوحى إليه! وابن عباس رضي الله عنه خبر هذه الأمة يقول صدق!! فارتاب الرجل ، قال : نعم صدق ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوَّلِيَّائَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١] صدق الشيطان أوحى إليه ، هذا وحي الشيطان .

هنا نأخذ عبرة : هذا الكلام الممجوج السقيم الركيك السيء وجد له أتباع وهم خلق ، ولهذا نتنبه لقول إمام الحنفاء : ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ، ولهذا يجب على المسلم أن يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى أن يعيده من أئمة الضلال ودعاة الباطل وأن يُبتلى بشيء من ذلك ، ويسأل الله عز وجل دائماً وأبداً أن يهديه إلى الحق وأن يرشده إليه وأن يدلّه إلى الصواب وأن يعيده من الفتن ومن البدع ومن الأهواء ما ظهر منها وما بطن ، كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كثيراً ما يوصي بهذا الدعاء : ((اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أن تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ؛ اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)) . ولهذا أحياناً يرى الإنسان عقول تضل ، فيها ذكاء ولكن تضل وتنحرف!! بسبب دعاة الباطل وتزيينهم للباطل وتزويقهم له .

فيجب على المسلم أن يحرص على سعادة نفسه وسلامتها من الخسران ، وأن تعظم عنايته بهذه السورة العظيمة «سورة العصر» ، أن يقرأها متدبراً معانيها متأملاً في دلالاتها ، وأن يراجع كلام أهل العلم في كتب التفسير المعتمدة في بيان مضامين هذه السورة العظيمة ؛ لتكون له بوابة للخير ومدرجاً للفلاح ومرتقى للرفعة والسلامة من الخسران . والمعين على ذلك كله والموفق هو الله وحده لا شريك له .

وصلّى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .